عرض كتاب ..

القرآن والمنهج العلمي المعاصر

للأستاذ عبد الحليم الجندي * * عرض وتلخيص د. محمد شوقي الفنجرى

كتاب (القرآن والمنهج العلمي المعاصر)، هو من أواخر ماصدر للمؤلف حديثاً في ختام عام ١٤٠٤/١٩٨٤، ونشرته دار المعارف بالقاهرة، ويقع في «٣٥٣» ثلاثمائة وثلاثة وخمسين صفحة من الحجم الكبير. فجاء هذا الكتاب في قمة مؤلفاته الإسلامية، إذ هو خلاصة قراءاته الواسعة واجتهاداته الكثيرة خلال نصف قرن. وهو في حقيقته موسوعة إسلامية موثقة، وإن جمعتها رابطة واحدة هي بيان المنهج القرآني والذي التزم به المسلمون في عهودهم الأولى فكانت لهم العزة والتقدم، وصارت لهم حضارة تجاوزت كافة الحضارات التي عرفتها الإنسانية حتى اليوم.

ولقد أظهر الكاتب بجلاء كيف انه بفضل هذا المنهج القرآني، ظهر على امتداد العالم الإسلامي بآسيا وافريقيا وأوروبا (الأندلس) أئمة وعلماء مسلمون جهابذة في مختلف ضروب العلم وأنشطة الحياة. وتميزوا بأنهم كانوا علماء «ربانيين» لا يستهدفون من بحوثهم واجتهاداتهم سوى وجه الحق تعالى ثم الصالح العام. وانه لم يهن المسلمون ويضعفوا، إلا حين حادوا عن المنهج القرآني وبعدوا عن روح الإسلام.

ولقد دلل الكاتب بما فيه الكفاية على أن

المنهج العلمي المعاصر الذي نسب إلى المفكر الانجليزي فرنسيس بيكون (١٥٦١ ــ ١٦٢٦م) ، إنما أخذ عن علماء المسلمين حيث انتقل المنهج الإسلامي إلى أوروبا من خلال الأندلس (اسبانيا) وصقلية (ايطاليا) . ولكن هؤلاء جردوه من صبغته الربانية وأهدافه السامية ، فكان هذا الإضطراب والتخبط الذي تعانيه الإنسانية ، وكان ذاك القلق والصراع الدموي الذي يتجرع عالمنا المعاصر مرارته .

وليس لهذا العالم من نجاة أو عزة ، إلا بالعودة إلى المنهج القرآني بجناحيه التجريبي والإيماني .

المنهج القرآني :

لقد كان المنهج السائد قبل ظهور الإسلام ، هو المنهج اليوناني (منطق أرسطو) المبني على الفروض لاعلى المدركات الحسية (الاستقرائية) ، فهو منهج نظري فرضي بحت يبدأ بالعموميات «المرسلة» ليصل إلى الجزئيات ويكرر النتائج في المقدمات ، وبسببه تجمد فكر اليونان وباتباعه أوقف المنهج الكنسي التقدم العلمي . بخلاف الأمر في الإسلام ، فقد جاء القرآن بمنهج التأمل في الكون والطبيعة واستقراء المشاهدات وعلل الأشياء ، والبحث في الأرض والسماء واستعمال العقل للاعتبار ، توصلاً للايمان والارتفاع بالنفس والسلوك والحياة إلى مستوى التقوى بدافع الخشية والرجاء في الله تعالى . فآيات القرآن ــ كما عبر بحق الكاتب في صفحة ٥٠ ــ تتنادى (تأملوا الحقائق وستقودكم الحقائق إلى الإيمان) .

وصدق الله العظيم حيث يقول (إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون ــ البقرة/ ١٦٤) ، وقوله تعالى: (وفي الأرض آيات للموقنين ، وفي أنفسكم ، أفلا تبصرون ــ الذاريات/ ٢١) . بل ينذر القرآن الغافلين بقوله تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ـ الأعراف/ ١٧٩) ، وقوله تعالى: (ومن كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ــ الاسراء/

٧٢). وينعى القرآن على من يتبعون الظن بقوله تعالى (ومالهم به من علم إن يتبعون الا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ـ النجم/ ٢٨) ، وقوله تعالى : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ـ البقرة/ ١١١).

وينقل المؤلف في صفحة ١٥٣ عن الإمام القزويني أن آيات القرآن تتواتر بالدعوة إلى النظر في السماء والأرض وسائر المخلوقات وأن (المراد من النظر التفكير في المعقولات والبحث في «المحسوسات»... وأن هذا النظر لا يتأتى إلا لمن له خبرة «بالعلوم والرياضيات» وبعد تحسين «الأخلاق» وتهذيب النفس) .

وينقل المؤلف في صفحة ٩٢ و ١٩٩ عن شيخ الإسلام ابن تيمية قوله (ليست العلوم النبوية مقصورة على مجرد الخبر كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام ويجعلون مايعلم بالعقل قسيماً للعلوم النبوية ، وهذا خطأ . إن العلم هو علم محمد ﷺ ، وعلم في ميراث محمد ﷺ . لقد بين ﷺ مختتماً دوره للرسالة العظمى ، العلوم العقلية التي يتم بها إيمان الناس وضرب الأمثال وكانت الفطرة بما يثبتها عليه . ولذلك أتى الخبر من السماء : القرآن والحديث ، بهذا يبين الحقائق لا بطريقة خبرية فقط بل «بالمقايس العلمية» فيبين طريقة التسوية بين المتماثلين والتفرقة بين المختلفين... فأنزل على القلوب من العلم ماتزن به الأمور حتى تعرف التماثل والاختلاف وتضع من «الآلات الحسية» مايحتاج له في ذلك ، كما وضعت موازين النقد وغير ذلك . قال الله تعالى: (والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان) فالميزان هو العدل ، ومايعرف به العدل وهو القياس القرآني المنزل ليتعرف به صحيح الفكر من باطله بالإضافة إلى أن نزن الأمور عامة «حسية» أو «عقلية»).

كما ينقل في صفحة ٥٣ عن الإمام محمد عبده قوله . «قالوا إن بيكون هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة العلوم العصرية ذلك حق في أوروبا ، وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة ، لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد الفلاسفة الأوروبيين أن القاعدة عند العرب «جرب وشاهد تكن عارفاً» ، وعند العربي إلى مابعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي: «اقرأ الكتب وكرر مايقوله الأساتذة تكن عالماً» .

موسوعة علمية إسلامية :

وللدلالة على المنهج العلمي في القرآن

الذي هو منهج تجريبي عملي يستخرج الخصائص والصفات ويحتكم إليها ، وينتقل من المعلوم اليقيني إلى المجهول المستكشف في كل أبواب المعرفة واختبارات المواد دون أن يقتصر على مايسمى بالإجتهاد الشرعي ، حتى لقد تولد على يد الإمام الشافعي (١٥٠/٢٠٤هـ) في القرن الثاني الهجري ماأسماه بـ «علم أصول الفقه» ، وتولد على يد الجاحظ (٢٥٥ هـ) في القرن الثالث الهجري ما أسماه بـ «علم التجربة» .

نجد الكاتب للدلالة على هذا المنهج العلمي الذي جاء به القرآن ، ينتقل بنا خلال الصفحات من ١٠٣ إلى ١٦٦ بين أئمة وقادة الإسلام ، يستوي في ذلك أئمة الدين والفقه والمتكلمين ويختار منهم خمسة أمثلة ، أما أئمة العلوم التطبيقية من رياضة وكيمياء وفلك وطب وموسيقى فيختار منهم خمسة عشر عالماً . وللأهمية نشير إليهم باختصار فيما يلي ، منتقين في سطور وجيزة أهم ماعرف عنهم وكذا بعض مواقفهم متأثرين بمنهج القرآن :

١ ـ الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٨هـ :

ونراه يتبع الاستقراء لاستنباط وجود الخالق من مخلوقاته ، ويستعمل دليل الشاهد على الغائب وينهى عن اتباع قول بغير دليل ، ويصاحب مجادله في طريق الاستقراء الملىء بآيات الله المالكة للاحساس الرافعة قلوب البشر من عمق الغفلة إلى مستوى العلم .

٢ ـ الإمام أبو حنيفة سنة ١٥٠ هـ :

ونراه يجيب مجادليه في وجود الله بقوله (إذا لم يجر في العقل وجود سفينة مشحونة بالأحمال مملوءة بالأمتعة والأثقال تجرى مستوية عارفة طريقها في لجة البحر ، من غير متعهد أو مجرٍ لها ، فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على إختلاف أحوالها من غير صانع وحافظ ومحدث لها ؟) .

٣ ـ جابر بن حيان سنة ١٦١هـ/٧٧٨ :

وهو تلميذ الإمام جعفر الصادق ، ويعتبر أول كيميائي في التاريخ وإمام التجريبيين في جميع العصور ، وهو القائل (إياك أن تجرب أو تعمل حتى تعلم ويحق أن تعرف الباب من أوله إلى آخره بجميع تنقيته وعلله ، ثم تجرب ليكون في التجربة كمال العلم) ، ويقول (اتعب أولاً تعباً واحداً ، واعلم فإنك لا تصل ، ثم تصل إلى ماتريد . . . وما افتخر أحد بكثرة العقاقير ولكن بجودة التدبير ، فعليك بالرفق والتأني) .

٤ ـ الخوارزمي ٢٣٥هـ/٨٥٠م :

وهو عالم الرياضة والجبر والكسور العشرية وعن طريقه عرفت أوروبا الأرقام الهندية وعلم الجبر، حتى أن اصطلاح «لوغاريتم» عرف باللاتينية عن اسمه، ويقول كاجورى مؤرخ الرياضيات (إن القوى العجيبة في علم الحساب والجبر واللوغاريتمات تعزى إلى العرب).

٥ ـ الكندى ٢٥٢هـ/٨٧٨م :

وهو فيلسوف العرب وأستاذ اللغة العربية وعالم الهندسة والفلك والكيمياء والطبيعة والموسيقى. ويقول عنه روجر بيكون (إن الكندى والحسن بن الهيثم في الصف الأول مع بطليموس)، ويقول عنه الإيطالي كاردانو (إنه واحد من الاثنى عشر عبقرياً الذين ظهروا في العالم).

٦ ـ الجاحظ ٢٥٥هـ/٨٦٨م :

وهو أديب اللغة العربية وزعيم فرقة من فرق المعتزلة تسمى الجاحظية. ولم تشغله معاركه الفكرية من مخالطة أهل المهن ليتحدث عن تجاربهم، بل وان يجمع الحيوانات والطيور ويضعها في أواني زجاجية ليراقب سلوكها إذ تجتمع، وقد يبقر بطونها ليعرف مافيها.

٧ ـ أبو بكر الرازي ٢٣٠هـ/٩٢٥م :

ويسميه المؤرخون «جالينوس العرب». ولما مرضت عينه وطلب إليه الطبيب خمسمائة دينار لعلاجه. تعلم الطب وأصدر كتاب (من لايحضره الطبيب) ليخدم العاجزين عن أجور الأطباء. وهو أول من أجرى تجارب على القردة واستعمل الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات في خياطة الجروح إذ جرب تفاعلها الكيميائي مع الجسم وامتصاصه لها. وهو أول من استنبط أثر الموسيقى لا لدفع الملل فحسب وإنما للشفاء من بعض الأمراض مع إضافة بعض العقاقير.

٨ ـ المسعودي ٣٤٦هـ/٩٥٦م :

وهو مؤرخ وعالم جيولوجي وفلكي، وأول من تكلم عن كروية الأرض ودورانها حول الشمس ودوران سائر الأفلاك في الكون. ومن فكره الثاقب اقتراح تغيير الطبيعة بوصل البحرين الأبيض والأحمر بقناة، وهو ما حققه المصريون بعد ثمانمائة عام. وكان أول من أثبت أثر البيئة والأوضاع الإقتصادية على الإنسان والسلوك، والعلاقة الوثيقة بينهما، حتى اعتبره ابن خلدون «إمام المؤرخين».

٩ ـ أبو الريحان البيروني ٣٥١هـ/٦٩٥م :

وهو موسوعي المعرفة فقيه وأديب فلكي ورياضي وكيميائي وطبيعي ، وكان يرى العلم عبادة حتى أنه حين أهدى إليه السلطان جمالاً محملة فضة ، وزعها على الفقراء قائلاً إنه يخدم العلم لا المال . ودخل عليه في مرض موته أحد فقهاء عصره فسأله كيف قلت لي يوما حساب الجدات الفاسدة (ميراث الجدة لأم)، فلما لاحظ اشفاقه عليه قال له (ياهذا أدع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها) .

١٠ ـ الحسن بن الهيثم ٣٥٤هـ/٩٦٨ :

وهو مكتشف علم الضوء وأول من خطأ نظريات اقليدس وبطليموس في أن العين ترسل أشعة بصرية ، وأخذ بنظرية أن الجسم المرئي هو الذي يرسل أشعته ، ويستخدم مصطلحات القرآن والفقه الإسلامي فيقول في رسالته عن الضوء (هذا المعنى يفسد عند السبر والإعتبار). وللحسن ابن الهيثم عدد ٤٧ كتاباً في الرياضيات و عدد ٥٨ كتاباً في الهندسة ، انتفع بها روجر بيكون ثم كيلر وليونارد وكورنيكس . وكان يقيم بجوار الأزهر ، متعيشاً على نسخ الكتب الهامة وبيعها مستغنياً رغم مكانته عن عطاء الخليفة .

ويقول عنه الدكتور مصطفى نظيف مدير جامعة عين شمس في منتصف هذا القرن (ينبغي أن تستبدل بأسماء روجر بيكون ومورليكوس وكيلرودى لابورا ، اسم الحسن بن الهيثم ، فعلى يده أخذ علم الضوء وجهة جديدة بمنهجه الإسلامي وهو الجمع بين الإستقرار والقياس ، وأن أمره في علم الضوء ليس بأقل من أثر نيوتن في الميكانيكا) .

١١ ـ ابن سينا ٣٧٥ ـ ٤٢٨هـ :

وقد ألف في الأدب والفقه والفلسفة والعلوم والفلك والطب والموسيقى عدد ١٠٧ مؤلفاً ، وكان يقول (كلما تحيرت في مسأله ، صليت وابتهلت إلى مبدع الكل ، حتى فتح لي إلى المنغلق وتيسر المتعسر) .

وكان كتابه الموسوعي في الطب (القانون) كما سجل وليم أوسلر هو (الإنجيل الطبي لأطول مرة من الزمان لجامعات أوروبا حتى سنة ١٧٠٠م منذ ترجمه جيرار الكريموني إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر للميلاد ، ثم طبع أكثر من خمسة عشر طبعة بمختلف اللغات الأجنبية) . وبلغ تأثير ابن سينا في علماء أوروبا في القرون الماضية منذ القرن الثالث عشر الميلادي قول رينان (أن الحبر

الألماني البرت الكبير مدين لابن سينا في كل شيء ، وأن القديس توماس الاكويني مدين في جميع فلسفته لابن رشد) .

١٢ ـ الإمام الغزالي ٥٠٥هـ/١١١١م :

وقد وصفه أستاذه إمام الحرمين الجويني بأنه «بحر مغدق» وكانت ترجمات أرسطو وافلاطون قد ذاع أمرها في الوسط العلمي من كتابات الفارابي وابن سينا فانشغل بدراسة الفلسفة اليونانية وألف فيها كتاب (مقاصد الفلاسفة) ، فلما استوثق من فسادها ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) . وساح في الأرض عشر سنين يبحث عن الحقيقة ليصل بالخلوة ومجاهدة النفس إلى عالم اليقين والطمأنينة ، ويؤلف في خلوته بالجامع الأموي كتابه الفريد (إحياء علوم الدين) ، ثم يعود إلى تدريس الفقه ويؤلف كتابه القمة (المستصفى) . وهو من أغزر المؤلفين انتاجاً وعنه أثر (من لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال) . وقد اجتمع في فكر الغزالي وعمله : العقل والشرع مع تنزه القلب عن أدران الحياة الدنيا ، وهو القائل (العقل كالأساس والشرع كالبناء) .

١٣ ـ عبد اللطيف البغدادي ٥٥٧هـ ـ ٦٢٩هـ :

وهو فقيه شافعي وأستاذ لغة وبيان وصاحب تجارب خالدة الأثر في الطب . وباتباع البغدادي المنهج الإسلامي ، يذكر له التاريخ الفضل في تصحيح أخطاء جالينوس والأطباء بعده . وقد نقد البغدادي فلسفة ابن سينا ، كما نقدها من قبله الإمام الغزالي ومن بعده ابن رشد ، ولكنه انفرد بحدة النقد بقوله (وأقوى من أضلني ابن سينا بكتابه في الصنعة، الذي أتم فلسفته ، والتي لم تزدد بالتمام إلا نقصا) .

١٤ ـ ابن طفيل ٥٨٦هـ/١١٨٥م :

وهو صاحب الكتاب المشهور (حي بن يقظان) الذي يولد في جزيرة لم يعرف بها بشراً ، فيسلك طريق العلم والحدس ، ليصل إلى أن الإنسان يحقق وجوده وينجو من الشقا ويبلغ غاية السعادة ، عن طريق اتباع الفطرة والولاء للحق تعالى وحده وابتغاء وجهه سبحانه . فيصل في النهاية إلى ضرورة الإسلام ، بتسليم الإنسان نفسه إلى الله ، وأن في العبودية لله وحده والإستسلام إليه سبحانه ، جوهر السعادة وعين التحرر والعزة .

١٥ ـ ابن رشد ٥٩٥هـ :

وقد اشتغل في الأندلس بالقضاء والفقه والفلسفة والفلك والطب . ويعتبر كتابه

(بداية المجتهد ونهاية المقتصد) مرجعاً للقضاء المالي والفقه المقارن في جميع العصور . وهو القائل (من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيماناً بالله تعالى) ، ويؤكد (أن الإنسان لايصل إلى الكمال إلا بالدرس والتحصيل والتفكير مع التزام الأخلاق والطهارة) . وقد تواترت تآليفه في الأخلاق والمنطق والطبيعة وشروح الفارابي على مختلف المسائل ، والرد على ابن سينا في تقسيم المخلوقات ، والرد على كتابي الغزالي (تهافت الفلاسفة) بكتابه (تهافت التهافت) ، وفي شرحه لارسطو بينّ مايخالف فيه أرسطو الكتب المنزلة ورده عليه .

١٦ ـ القزويني ٦٠٥هـ ـ ٦٨٢هـ :

وهو قاضي وفقيه ومفسر للقرآن وإمام في الحديث وأستاذ في الجغرافيا ومن أهم كتبه (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات) وكذا (آثار البلاد وأخبار العباد) ، وقد بين أسباب تأليفه لها بأنه (قد حصل لي بطريق السمع والبصر ، وبطريق الفكر والنظر ، حكم عجيبة وخواص غريبة أحببت أن أقيدها) . ولقد أبرز بحق المنهج القرآني حين أوضح بجلاء أن قوام الحياة هو التعبد بالعلم ، وأن مناط العلم هو «التجربة» مع الإلتزام «الأخلاقي» .

١٧ ـ ابن البيطار ٦٤٦هـ :

وقد ظل كتابه (الجامع لمفردات الأدوية والأغذية) مرجعاً حتى العصور الحديثة وبين منهجه الإسلامي بقوله (لقد وقع الكثير في وهم أو غلط لاعتمادهم على الصحف والنقل ، واعتمادي على التجربة والمشاهدة) . ويقول أبرز تلاميذه ابن أبي أصيبعه صاحب كتاب (عيون الأنباء في طبقات الأطباء) وكان يصحبه في بعض رحلاته للمشاهدة والتحقيق : (لقد شاهدت في خارج دمشق كثيراً من النبات في مواضعه) .

١٨ ـ التيفاشي ٦٥١هـ :

وهو عالم جيولوجي يصنف المعادن تصنيفاً يتبعه العلماء حتى الآن ، ويسجل له السبق فيما يسمى بتجربة الشعلة Element Ilame Test فيما يتعلق بحجر اللاذورد .

١٩ ـ ابن النفيس ٦٧٨هـ/١٢٩٦م :

وهو فقيه تخرج من الأزهر واشتغل بالطب ، وكان أول من اكتشف الدورة الدموية . وينتقد قول ابن سينا أن في القلب ثلاث بطون بقوله (هذا قول لايصح فالتشريح يكذب ذلك . . . والقلب له بطنان فقط) ، وهذا يدل على أنه مارس

التشريح ، في وقت شاع فيه عدم التعرض لحرمة الجثث .

٢٠ ـ ابن خلدون ٧٣٢هـ ـ ٨٠٨هـ :

وهو فقيه وقاضي ومؤسس علم الإجتماع ، وقد ولد بتونس ، وحبس بفاس ليخرج من حبسه فيتولى ديوان المظالم، ثم السفارة باشبيلية بالأندلس ، ثم يستقر بمصر .

وأخذاً بأمره تعالى بالسير في الأرض والاعتبار بسنن الكون ، يصدر خلال فترة إقامته بمصر كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر) وقد اشتهر بمقدمته (مقدمة ابن خلدون) ، حيث يطلع على الناس بفرع جديد من فروع العلم بالتاريخ هو منهج «العبرة» بواقع المشاهدة من أحوال الدول وأدوارها في الوجود ، لا مجرد رواية الحوادث على ماجرت به أقلام المؤرخين قبله . وهكذا أنشأ بمنهج القرآن في الاستقراء والاستنباط علماً جديداً سمى بعلم الاجتماع ، على نمط علم أصول الفقه الذي نشأ على يد الإمام الشافعي .

ومن خلال هذا العرض الدقيق لجهود وفكر بعض أئمة وقادة الإسلام ، بالتزامهم بالمنهج القرآني في النظر والاستقراء ، يقدم لنا الكاتب المستشار العالم عبد الحليم الجندي موسوعة علمية إسلامية بلغت الذروة . ورغم إيجازها ، فقد أحسن المؤلف اختياراته ، فجعلنا نستشعر بعمق عظمة الإسلام ممثلاً في هؤلاء الأئمة والقادة الذين وعوا القرآن وأدركوا منهجه ، فاستضاءت قلوبهم بنوره وضربوا لنا المثل بتفكيرهم وسلوكهم ومواقفهم الإسلامية ، وتركوا لنا كنوزاً واجتهادات وإضافات جديدة في مختلف ضروب العلم وأنشطة الحياة .

ولم يفت المؤلف أن يقدم لنا في صفحة ١٩١ وما بعدها ثبتا للمصطلحات الإسلامية في مختلف ضروب العلم ، والتي دخلت إلى اللغات الأوروبية بهجائها ونطقها . كما كشف عن دور علماء المسلمين في مواجهة المعطيات والمترجمات من اللغات اليونانية والفارسية والهندية ، وكيف نظروا إليها على ضوء مفهوم التوحيد الخالص فقبلوا منها وردوا وصححوا كثيراً من أفكار عمالقة الفكر القديم كارسطو وجالينوس ، وما أخذوه من هذه المعطيات جعلوه مادة خاماً صهروها في بوتقة منهجهم القرآني ونظرتهم إلى بناء المجتمع الرباني والحضارة الإسلامية العالمية .

كما لم يفته، أن يخصص باباً مستقلاً من صفحة ٢٦٣ إلى صفحة ٣٢١ عن تطبيق

المنهج القرآني في مجال القضاء . فجاء هذا الباب على اختصاره جامعاً مانعاً ، وفيه اجتهادات وإضافات جديدة ، ليصبح بحق مرجعاً لكل باحث في هذا الخصوص . وما أدق وأروع أن يصور الكاتب القضاء في الأمة كالعدسة المكبرة لما وراءها حتى الأثر (أنظر كيف تصدر الأحكام في أمة تعرف مقدار حضارتها) ، مؤكداً أنه إذا كان التوحيد أساس الإسلام فإن العدل جماعه به استقر واستمر وانتشر ، وأن سيادة القانون أو النظام تعنى في جوهرها سيادة القضاء . وما أجمل أن يسلط المؤلف الأضواء على كتاب الخليفة عمر بن الخطاب إلى كل وال وقاض بقوله (واس بين الناس في مجلسك ووجهك وقضائك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . . . وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذى بالناس) ، ويذكر لنا كيف أن الخليفة علي بن أبي طالب جعل رضى الرعية عن وُلاَتها وقُضَاتها علامة صلاح الحكم إذ يقول (إن أفضل قرة عين الولاة إستفاضة العدل في البلاد بظهوره في مودة الرعية . . . . . وأنه ليس أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم . . . وأنه لا يقدم في ولاية القضاء سوى الأعلم والأورع) ، وأن دلالة الحاكم الظالم تولية منافقيه وأن يحكم الرعية لمصلحته لا لمصلحتها . ويعرض المؤلف المدقق لمسائل معاصرة يشتد فيها الخلاف كولاية المرأة للقضاء ويبين اختلاف الفقهاء القدامى بشأنها وكيف جوزها في جميع القضاء الإمام ابن جرير الطبري والإمام ابن حزم الظاهري ، بينما قصرها الإمام أبو حنيفة فيما تصح فيه شهادتها فلم يمنعها من القضاء إلا في الحدود والقصاص ، في حين رفضها أغلب الفقهاء ، ولكل أدلته وأسانيده الشرعية . ثم ينتقل الكاتب بنا إلى مسائل معاصرة أكثر دقة ، ليبين لنا أن القضاة الصالحين أنفع للأمة من القانون وإن صلح وإن كان الأنفع أن يجتمع الأمران ، وأن من صيانة القضاء الا يشترك القاضي في السياسة وفي غير شئون القضاء ، وإن جاز له المشاركة بالرأي في المسائل العامة البعيدة عن قضاياه ، فالرأي حر ، وإبداؤه واجب بخلاف المشاركات في الولايات «فنهايتها المساس باستقلال القاضي وربط له بعجلات الإدارة أو شهوات الساعة أو فرطات الساسة وما أكثرها» .

فرنسيس بيكون والمنهج العلمي المعاصر :

أفرد المؤلف فصلاً واسعاً من صفحة

١٦٧ إلى ٢٣٨ عن المنهج العلمي المعاصر ، وعن المفكر الإنجليزي فرنسيس بيكون (١٥٦١/١٦٢٦م) الذي نسب إليه هذا المنهج ، حيث ندد بجلاء وقوة في كتابيه (تقدم العلوم) و(المنهج الجديد) بمنطق أرسطو ، داعياً إلى ملاحظة الطبيعة بالكشوف التجريبية لا بالمنطق العقلي على طريقة أرسطو ، منبهاً إلى مايصيب الذهن من تشويش عندما يدرس «الكلمات» لا «الأشياء» ، وأن مهمة الإنسان هو تفسير الطبيعة وأن سبيله إلى ذلك أن يتحول من دراسة الألفاظ إلى دراسة الأشياء ليتوصل إلى معرفة قوانين الطبيعة ، وبدلاً من أن يستخلص حقائقها مشوهة بالاستنتاج المنطقي كارسطو ، يستخلصها كما يقول صائبة بالتجربة والاستقراء ، ويرى أن أعمال المصلحين بطولات محلية ومؤقتة في حين أن اختراعات العلماء هي خلق وتقليد للعمل الديني ونعمة للبشرية كافة . وفي كتابه (الأورجانون الجديد) في مقابل منطق أرسطو الذي سماه تلاميذه (أورجانون) ، يتكلم فرنسيس بيكون عن أصنام أم معوقات الفكر الأربعة (أصنام القبيلة ، وأصنام الكهف ، وأصنام السوق ، وأصنام المسرح) ، وكيف أخطأ الناس حين حسبوا أن فهمهم يحكم الألفاظ في حين أن الألفاظ هي التي تحكم الأفهام وكيف ضلت الإنسانية طريقها قروناً طويلة في متاهات الألفاظ الجوفاء وعبث التصورات والقيادة الزائفة لارسطو وتلاميذه .

وأظهر المؤلف المدقق أن فرنسيس بيكون قد استفاد من سلفه روجر بيكون الذي توفى عام ١٢٩٤م وكان من أحبار الفرنسسكان الانجليز . وقد حصل على الدكتوراه في اللاهوت من باريس واشتغل بالطبيعة والكيمياء في دير «كوردلييه» بباريس ، ثم تعلم العربية في الأندلس وأكب على دراسة الحسن بن الهيثم والكندي وابن رشد . وقد تأثر للغاية بالفكر والمنهج الإسلامي ، فتراه ينقد بشدة منهج أرسطو ، ويصرح في أكسفورد (أن وجود الفكر الأوروبي والعلم الأوروبي كان مستحيلاً لولا وجود المعارف العربية . . . لقد دعيت أوروبا فجأة إلى الحياة بعد أن ظلت في ظلمات الجهل خمسة قرون . . . وهي مدينة لها بكل تقدمها) .

ويتابع المؤلف المدقق تحقيقاته فيبين أن الراهب الألماني البرت الكبير في القرن الثالث عشر انشغل بالكتب العربية فترجم مؤلفات ابن سينا والغزالي ، ثم ألف كتاباً بعنوان (مآثر العرب) ، ويدل عنوان الكتاب على تأثير العرب في أوروبا بمثل

مايدل وصف هذا الراهب الكبير على أثره في الفكر الكنسي ، وهو أستاذ القديس توماس الأكويني .

ولقد ذاعت شهرة القديس توماس الاكـويـنى (١٢٢٥/١٢٧٤م - ٦٢٢/٦٧٣هـ) حيث تلقى علوم العرب من مصادرها في صقلية ، وكان يستشهد في كتابه الشهير (مسائل جدلية) بأفكار ابن رشد حتى يكاد يكون مجرد ناقل عنه ، وقد عرف بمعارضته للإمام الغزالي بحجج الفارابي وابن رشد .

ويبين المؤلف الموسوعي في هذا الفصل كيف أن الفتوح العلمية تمت على يد المسلمين واستفاد منها العالم أجمع ، وأن مرد ذلك هو دينهم الإسلامي «واختصاصهم» بل «تفردهم» وقتئذ بالمنهج التجريبي ، الذي شرعه لهم دين يعلن حرية العقل ويوجب استعماله ويستبعد كل مايعطله ويأمر بالتعليم والتعلم واستقراء طبيعة الأشياء وواقع الظواهر الكونية ، توصلاً للحقائق التي هي ضالة المؤمن . وإنه كان من سنن الله في كونه ، أن يؤاخذ الدولة الإسلامية بظلمها وجهلها وتفرقها فترجع القهقرى، في حين تتقدم الدول الأوروبية بالعلم والعدل ، وتكشف عن العالم الجديد وتحدث الثورة الصناعية حتى عظم أمر الاستعمار . فنتج عن تخلف المسلمين واستعمار الأوروبيين لبلدانهم هوة سحيقة الأعماق في ضمير التاريخ الأوروبي ، أخفى فيها كنوز التراث العلمي الإسلامي . ووجد المتعلمون المسلمون أنفسهم يستوردون العلوم الإسلامية من مراجع انجليزية وفرنسية وألمانية وإيطالية واسبانية ، ويقنعون بمحاولة إحصاء كتبهم في خزائن أوروبا ، بل يدخل فيما يستوردون من العلوم دراسات في الدين والسنة النبوية واللغة العربية !! (ص ١٨٨) .

وإذ يصحح المؤلف العالم في هذا الفصل بعض أخطاء بيكون صاحب (المنهج الجديد) ، يظهر بجلاء أن ماادعاه من منهج جديد ليس بجديد ، بل هو بعض من كل سبق به القرآن وعمل به العلماء العرب في كل فنون العلم . وإذ ينقل المؤلف إلى صفحة ٢٣٤ عن المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه (تاريخ العرب) قوله (إن العرب أدركوا بعد لأي أن التجربة والمشاهدة خير من أفضل الكتب ، وكذلك سبقوا أوروبا إلى هذه الحقيقة التي تعزى إلى فرنسيس بيكون بأنه أول من أقام التجربة والاختبار اللذين هما ركن المناهج العلمية

الحديثة ، فالمسلمون أسبق إلى نظام التجربة في العلوم) ، فإنه يذكر بحق (لو أن جوستاف لوبون قرأ القرآن كله أو بعضه لعرف أن العرب لم يدركوا ذلك بعد لأي ، وإنما هم مأمورون في القرآن بالعلم وبمنهجه في استعمال «العقل» و«الحواس» ، أي التجربة الفعلية مع الحرية الكاملة) . ويتابع المؤلف كشف المستشرقين عن المنهج الإسلامي من كتب العلماء التطبيقيين ، فينقل عن درابر في كتابه (النزاع بين الدين والعلم) قوله: كان الأسلوب الذي توخاه المسلمون سبب تفوقهم في العلم ، فإنهم تحققوا أن «الأسلوب النظري» لا يؤدي إلى التقدم ، وأن الأمل في معرفة الحقيقة معقود «بمشاهدة» الحوادث ذاتها . ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم هو «الأسلوب التجريبي» وهذا الأسلوب هو الذي أدى إلى اكتشافهم علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة. وإنا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ماكنا نظنه من ثمرات العلم في هذا العصر).

■ ■ ■

خاتمـــــــة :

والواقع أن كتاب الأستاذ عبد الحليم الجندي عن (القرآن والمنهج العلمي المعاصر) ، هو من كتب القمة الشوامخ المضيئة على مر الأيام ، والتي تتوج وتزين كل مكتبه ، وتفيد وتثرى كل قارىء .

ويكفي أن الكتاب يزيدنا اقتناعاً ويعمق إحساسنا ، بأن الإسلام هو السبيل الوحيد لإنقاذ البشرية من أزماتها على الصعيد المادي والروحي ، ولتصحيح «حضارة الأشياء» لتصبح «حضارة الإنسان» .

فالحضارة المعاصرة بشقيها الرأسمالي الفردي والماركسى الجماعي ، رغم ماحققته من انجازات مادية ، فقد انتهت بالإنسان ومجتمعات تلك الحضارة إلى الصراع والتمزق والضياع ، واستبدت التكنولوجيا بسلام الإنسان وأمنه واستقراره . والإسلام وحده هو طوق النجاة ، إذ يحفل بالعنصر المادي ولكنه يضعه في خدمة العنصر الروحي ليتألف منهما الوصف الإسلامي . وانه لم تشك الأمة الإسلامية فاقة أو هواناً أو ضياعاً أو جهالة، إلا في تلك الأزمنة التي انشغل فيها أولو السلطة أو الأمر أو العلم أو القدوة بأنفسهم عن دينهم أو جماعاتهم . وصدق الرسول الكريم حين قال : صنفان إذا صلحا صلح حال هذه الأمة ، وإذا فسدا فسد حال هذه الأمة ، الأمراء

والعلماء[1] . وفي رواية أخرى : اثنتان لو صلحا ، صلح الناس كلهم ، الأمراء والعلماء[2] .

لقد جاء القرآن الكريم بأمرين : «حقائق توفيقية»، وحقائق توقيفية» . أما الأولى فهي ماتتعلق بالأشياء وسائر مخلوقات الله تعالى ، فقد دعا المسلمين إلى النظر فيها والكشف عن أسرارها مما أنتج «العلم التجريبي» . أما الثانية فهي ماتتعلق بذات الله وأوصافه وحساب اليوم الآخر وقواعد تنظيم المجتمع . . . الخ ، مما لايستطيع الإنسان التوصل إليه في صورته الحقيقية المثلى دون وحي ورسل ، فقد دعا المسلمين إليها بمنهج متطابق معها مما أنتج «العلم النظري» ممثلاً في علم العقيدة وعلوم الفقه . فهذا هو منهج القرآن : حين يعمل الإنسان في عالم المادة فإنه يعمل في عالم يمكن أن يعرفه لأنه مجهز بإدراك أسراره وقوانينه، وحين يعمل في غير ذلك فهو يعمل في متاهة واسعة بالقياس إليه وهو غير مجهز ابتداء بإدراك حقائقها الهائلة الغامضة . ولاشك أن للعقل دوراً رئيسياً وهاماً في معرفة حقائق الغيب والتشريع ، ولكن الخطأ يكمن في محاولة العقل البشري معرفة ذلك وحده دون قيادة الوحي وتوجيهه . ان مايظل العقل وحده باحثاً عنه قروناً طويلة دون الاهتداء إليه ، يتلقاه تلقياً مباشراً وسريعاً وكاملاً من القرآن ، وفي هذا رحمة وخلاص للإنسانية وهداية للبشرية جمعاء . وصدق الله العظيم (يبين الله لكم أن تضلوا ، والله بكل شيء عليم ــ النساء/ ١٧٦) ، وقوله تعالى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ــ القصص/ ٥٠) .

إن أصالة الفكر الإسلامي والإبداع الحضاري للمسلمين يتمثلان في أعمال الفقهاء والأصوليين ، وفي توصل أئمة الإسلام إلى قواعد المنهج العلمي التجريبي وتطبيقه في مختلف العلوم التجريبية بما أدى إلى تقدم العلوم الطبيعية والكيميائية والطبية والرياضية والفلكية وغيرها تقدماً عظيماً لم يشهده تاريخ الإنسانية المكتوب من قبل في أية حضارة أخرى سابقة أو تالية للحضارة الإسلامية .

ودعوة المؤلف منهجياً وموضوعياً، هو أن يكون مرجعنا ومعيارنا الذي نرجع إليه ونزن به كل فكر وكل تشريع وكل نظام وكل علم، هو القرآن والسنة، وإنه لن تصحو أمة الإسلام وتتوحد إلا بما قامت به وتوحدت، وهو الاجتماع على القرآن

والسنة. والذي يجب أن نتوخاه في المنهج، هو ألا نقبل على القرآن وفي أذهاننا فروض وأفكار مسبقة غريبة عنه، ثم نبحث فيه عما يؤيد مافي أذهاننا من نظريات وأفكار. وأن من يقبل على القرآن الكريم وفي نفسه ابتغاء معرفة الحق وحده يهديه الله تعالى ويفتح له كنوز معرفته بقدر تقواه، وصدق الله العظيم (اتقوا الله ويعلمكم الله — البقرة/ ٢٨٢)، وصدق الأثر النبوي (ومن يعمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم).

هذا ولا أجد خير ما اختم به هذه الدراسة عن كتاب (القرآن والمنهج العلمي المعاصر)، سوى ماذكره المؤلف بقوله في صفحة ٢٣٨ (الكتاب الحالي خطاب موجه للحاضر والمستقبل معاً، باقتدار المنهج القرآني على إبلاغ الفكر الإنساني أعلى مبالغة. ولقد آن للمسلمين الذين يتوثبون للتقدم ويتشوقون إلى العلم أن يدركوا أن عندهم مفاتحه، وأنهم إذ يعملون به يستردون تقدمهم ولا يستوردونه).

ولا يفوتني أن أشير إلى ماتميز به هذا الكتاب من فهارس متعددة تيسيراً للباحث، فلم يقتصر شأن سائر الكتب على فهرست الموضوع وفهرست المراجع، وإنما اشتمل أيضاً على ثلاثة فهارس إضافية هي: فهرست المسائل، وفهرست البلدان، وفهرست الأعلام.

وإذا كان هناك من رجاء فهو أن يتفضل المؤلف الكبير في طبعته القادمة، حيث علمنا الإقبال الشديد على كتابه وانه على وشك النفاد من السوق، فيتوسع في الفصل الخاص بأئمة وعلماء الإسلام التجريبيين، وكذا أن يذكر بالهامش مراجع الإقتباسات العديدة التي أوردها على لسان جهابذة الإسلام وقادة الفكر الإنساني، وذلك بالإشارة إلى أسماء مؤلفاتهم التي أخذ عنها وتاريخ طبعتها وناشرها وأرقام صفحاتها، وقد يكون في ذلك بعض العسر إذ لا تقل هذه الاقتباسات الرائعة والمنتقاة بدقة عن العشرات بكل صفحة، ولكنه مجرد رجاء وأمل.

الهوامش :

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس، وأبو النعيم في الحلية عن ابن عباس، وابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله الجزء الأول صفحة ٢٢٦. وفي فيض القدير جزء ٤ صفحة ٢٠٩ إذا صلح الراعي صلحت الرعية، والعلماء أمناء الرسل.

(٢) أنظر الإمام العلامة أبو بكر الخوارزمي، في مؤلفه مفيد العلوم ومبيد الهموم، صفحة ٤٠٩ من فصل السلطان، طبعه وزارة الشئون الدينية بدولة قطر سنة ١٤٠٠هـ /سنة ١٩٨٠م.